

حجاجية الصورة التشبيهية في الحديث النبوي الشريف

Argumentation de l'image analogique dans le hadith du prophète

الدكتور : رابح أوموادن/ كلية الآداب و اللغات / جامعة تيزي وزو

الدكتورة : بهجة أوموادن/ كلية الآداب و اللغات / جامعة تيزي وزو

yogorta1@hotmail.fr

تاريخ النشر: 2019/09/02

تاريخ القبول: 2019/08/20

تاريخ الإرسال: 2019/07/18

ملخص البحث

تحاول هذه الدراسة البحث في قضية التشبيه، الذي عني به نقادنا العرب القدامى عناية بالغة الأهمية، فقد عدّ من أشرف كلام العرب؛ فيه تظهر الفطنة والبراعة، وعليه تقوم الصناعة الإبداعية ومرتكزات البناء الفني للشاعر، فيتمّ الحكم على شاعريته وبراعته وفقا لقدرته في اختيار القوالب التشبيهية التي يصبّ فيها معانيه ويرسم ظلالها، ويقتنص بها الدلالات ويحدّد مراميها، لذلك اعتبر أداة فعّالة في تبليغ المعاني، كونه يجمع بين المبالغة والبيان و الإيجاز، كما أنّه لا يصار إليه إلّا لغرض حيث يظهر جانبه النفعي الحجاجي، وبذلك نلمس تقاطعا حاصلًا بين بعده الجمالي الإبداعي وأساسه التداولي الإقناعي. وبهذا يهدف هذا المقال إلى تبين فاعلية التشبيه ودوره في تبليغ المقاصد من خلال تحليل أنموذجي لحديث نبوي شريف، مبرز الدور الحجاجي للتشبيه، ومدى تأثيره في المتلقي بالرفع من درجة إقناعه، ودعوته للتسليم بالغاية الكبرى المضمرّة خلفه.

الكلمات المفتاحية: التشبيه - الحجاج - التواصل - الإقناع - الحديث النبوي الشريف - المتلقي - التداولية - النظرية التفاعلية - النظرية الاستبدالية - الشكل - القيم.

Résumé:

Cet article tente d'étudier la question de l'analogie, que les critiques arabes anciens ont traitée avec une grande importance, considérée comme l'un des outils les plus efficace pour transmettre et éclairer le sens, combinant exagération, illustration et concision. On fait appel aux analogies, sur tout, dans les cas pragmatiques et argumentatifs, et ainsi nous voyons le point de convergence entre la dimension esthétique et la base de l'aspect pragmatique et persuasif. L'objectif de cet article est d'illustrer l'efficacité de l'analogie et son rôle dans la communication au moyen d'une analyse modèle du hadith du prophète, en soulignant le rôle de l'argumentation de l'analogie et son impact sur le destinataire en augmentant le degré de persuasion et en appelant à adopter l'objectif du sens implicite.

mots clés: analogie - argumentation - communication - persuasion - hadith du prophète - destinataire - pragmatique - la théorie interactive - la théorie de la substitution - la forme - les valeurs.

تمهيد: الوظيفة الحجاجية للتشبيه في الحديث النبوي الشريف:

إنّ الناظر في الدرس البلاغي العربي القديم يلاحظ بسهولة أنّه ينطلق في تناوله للتشبيه من الوظيفة الجمالية والإمتاعية للصورة التشبيهية، وبذلك عكست تحليلات الشواهد التي تعتمد على التشبيه الاهتمام الكبير بمسألة التذوق الجمالي والتأثير الإمتاعى الذي تحدثه في المتلقي، ولم يحظ التشبيه بمنزلته وقيّمته العلمية الحقيقية إلّا مع الأبحاث التداولية التي جنحت إلى دراسة الوظيفة الحجاجية للصورة البلاغية بالتعامل معها على أساس نفعي، بيّن مدى أهميتها وفعاليتها في الخطابات المتنوعة.

لقد ركّزت الدراسات البلاغية القديمة في دراستها للتشبيه على الاهتمام بالجانب الجمالي وعلاقة المشابهة الضيقة بين أركان التشبيه التي تخطف المتلقي، إلّا أنّ هذه اللذة لا تكتمل إلّا من خلال الكشف عن عباراته المشبعة بالغموض ومحاورتها للكشف عن الحقائق القابعة وراءها، فالتشبيه يؤسس لأفكار ودلالات يتبغي إيصالها إلى ذهن المتلقي، وبهذا نصل إلى الربط بين العنصر الجمالي والتأثيري فيه وعنصر الدلالة والإقناع المعبر عنه في الخطاب.

والحديث النبوي الشريف يعدّ خطابا إقناعيا بامتياز، والحجاج أصل متجدّد في بنية النصّ الحديثي الذي لم يفارقه الهمّ الإقناعي على طول المسار الخطابي الممتدّ في الزمان والمكان. وقد هيّئ النبي ﷺ للقيام بهذه الوظيفة، فأوتي جوامع الكلم، وأيد بالبراهين الساطعة، وكشفت له حجب الدلالات فعتت له مقاليد البلاغة، وانقادت له مسالك الحجاج.

كان استدعاؤه يمثّل شاهدا دينيا لا يمكن المساس به، ولا الخروج عنه، بوصفه المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي: **چپ پ پ ث نچ [سورة النجم:03]**، ومن هنا كان لكلام النبي ﷺ قدرة عظيمة لإقامة الحجة وتبليغ المقاصد وإذعان الناس على قبول المعاني بل -وحتى- إنجازها لأنّ « ألفاظ النبوة يغمرها قلب متصل بجلالة خالقه ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه فهي إن لم تكن من الوحي لكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله»¹.

¹ - مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، (د ط)، مكتب رحاب الجزائر، ص279.

ارتبطت أساليب الحديث النبوي الشريف بعلم البيان، فجاءت محملة بصور بلاغية متعددة كالكناية والاستعارة والتشبيه، ساهمت في كسب استمالة المتلقي والتأثير فيه وذلك لما تحويه من شحنة حجاجية مستمدة من بعدها الجمالي الإبداعي أولاً، ومن المعاني الضمنية غير المباشرة التي تلهب الطاقة الحجاجية ثانياً، لذلك يقودنا الحديث عن مصلحة التشبيه ومهمته داخل الخطاب النبوي الشريف انطلاقاً من وظيفته الحجاجية وتأثيره في المتلقي.

يمكننا أن ندرك جلياً الاشتغال الحجاجي للتشبيه من خلال بنيته التمثيلية؛ إذ يكشف لنا الجذر اللغوي للتشبيه في المعاجم العربية على معنى "المماثلة"، فقد جاء عند ابن منظور أنّ التشبيه هو التمثيل: "الشبه والشبه والشبيه: المثل، والجمع أشباه، أشبه الشيء الشيء: مثله".

وبذلك تنبئ لفظة "المماثلة" على وجود علاقة بين المشبه والمشبه به يكشف عنها المتلقي بنوع من اليقظة واستنباط للدلالات والايحاءات، وهو ما يتجلى من تعريف **عبد القاهر الجرجاني** حين يقول: "واعلم أنّ مما اتفق العقلاء عليه، أنّ التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونُقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أُلُحَّةً، وكَسَبَهَا مَنَقَبَةً، ورفع من أقدارها، وشَبَّ من نارها، وضاعف قُوَّها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صباغةً وكلفاً، وقَسَرَ الطَّبَاعَ على أن تُعطيها محبةً وشغفاً، فإن كان مدحاً، كان أَبْهَى وأفحَمَ، وأنبَلَ في النفوسَ وأعْظَمَ، [...] وإن كان حجاباً، كان بُرْهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبَيَّانه أُنْجَرٌ"¹.

فالجرجاني يؤكّد في قوله هذا على أنّ المعاني تلبس حجاجيتها بالتشبيه، فيكون التأثير والإقناع وهو ما ذهب إليه **جلال الدين السيوطي**، حين عدّ التشبيه أحد الأساليب الإقناعية التي يتوسّل بها المتكلّم للوصول إلى أهدافه الحجاجية بترسيخ المعاني في النفوس، يقول: "فبحسن الألفاظ واختلافها على المعنى الواحد ترصّع المعاني في القلوب، وتلتصق بالصدر ويزيد حسنه حلاوة وطلاوة بضرب الأمثلة والتشبيهات المجازية"².

¹ عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد الفاضلي، ط2، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1999، ص 88.
² جلال الدين السيوطي، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، صححه: فؤاد علي منصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1998، ص 37، 38.

وبهذا يقرّر النقاد العرب القدامى بمهمة التشبيه الإقناعية داخل الخطاب واشتغاله فيه، فهو أداة من أدوات المحاجة وتقريب المقاصد والأهداف.

تكمّن القوّة الحجاجية للتشبيه من خلال عناصره التي تقود إلى بعث الدلالات التي تفتح خيال المتلقي، كالعلاقة بين المشبه والمشبه به، وكذا "عنصر المقام والسياق الذي يرد فيه هذا التشبيه إضافة إلى عنصر التواصل وأطرافه (مرسل الخطاب ومضمونه ومتلقيه)"¹. هذا ما سنبيّنه من خلال دراستنا لحديث نبويّ شريف، بالتركيز على العناصر التي تحقّق الوظيفة الحجاجية للتشبيه، وهي:

أولاً: حجاجية التشبيه من خلال شكله.

ثانياً: حجاجية المرسل: الرسول ﷺ.

ثالثاً: حجاجية المتلقي.

المطلب الأوّل: أشكال حجاجية التشبيه في الخطاب النبوي:

أولاً: متن الحديث النبوي الشريف:

سنلجأ في هذا المقال إلى ركوب آلية الانتقاء لتبيين المقصود عن طريق الشواهد التطبيقية، وقد وقع اختيارنا على حديث مروي في الصحيحين؛ فعن أبي موسى -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان [المرصوص] يشدّ بعضه بعضاً» متفق عليه².

ثانياً: حجاجية التشبيه من خلال شكله:

يتضح ذلك من خلال تبيان العلاقة بين المشبه والمشبه به، ونقصد بالشكل هنا: "البناء الذي تتشكل وفقه مادة الصورة تلك تشكّلاً حجاجياً من شأنه أن يؤدي إلى الإقناع"³، وتبليغ المقاصد.

¹ - محمد بن لشهب، الروابط الحجاجية في المقامة، مقامة النحو للزمخشري نموذجاً، ضمن التحليل الحجاجي للخطاب بحوث محكمة ط1، كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، 2016، ص450..

² - الحديث أخرجه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وأحمد وغيرهم من غير ذكر الزيادة بين المعقوفتين [المرصوص] وهي زيادة وقعت في بعض الروايات المنقولة في كتب مفسرين معاصرين كتفسير الشعراوي وتفسير أبي زهرة، وزاد البخاري في رواية: [وشبك بين أصابعه].

³ - عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط2، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2007 ص496.

يذكر عبد الله صولة أشكالاً أسلوبية كثيرة يمكن أن يظهر فيها هذا البناء، ولعل ما ينطبق على الحديث المختار للدراسة الشكل التالي:

(أ)، (ب) يمثلان: المشبه = وهو الدليل.

يشبه:

(ج)، (د) ويمثلان: المشبه به = وهو المدلول.

وينطبق هذا الشكل على التمثيل بين عناصر المشبه في حديث الرسول ﷺ فيمثل العنصران (أ) و (ب) في علاقتهما ببعضهما البعض ما يمثله العنصران (ج) و (د) مع بعضهما، وهو ما يمكن توضيحه كما يلي:

المؤمن	لأخيه المؤمن
(أ)	(ب)
يمثل:	
البيان	المرصوص والمشدود
(ج)	(د)

فتكون صورة المؤمن وعلاقته بأخيه المؤمن كبيان مشدود ومثبت لا يتزعزع، لتعكس طبيعة العلاقة داخل المجتمع الإسلامي.

جاء في معجم المعاني الجامع: "بيان: مصدر بني، البيان: ما بني، مرصوص: مفعول من رصّ، بناء مرصوص: ما أحكم بنيانه"¹، وقد ذكر حمزة محمد قاسم في شرحه للحديث الدلالة العامة لهذا التشبيه، فقال: "... أي إنّ المؤمنين في تآزرهم، وتماسك كلّ فرد منهم بالآخر، وحاجتهم إلى هذا التماسك كالبيان المرصوص الذي لا يقوى على البقاء إلا إذا تماسكت أجزاؤه لبنة لبنة، فإذا تفككت سقط وانهار، كذلك المجتمع الإسلامي يستمد قوته من ترابط أجزائه بعضهم ببعض"².

¹ - حمد محمد بن صراي، يوسف محمد الشامي، المعجم الجامع، ط1، مركز زايد للتراث والتاريخ، 2000.
² - حمزة محمد قاسم، منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، مراجعة: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان دمشق، 1990م ج2، ص42.

وجاء عند ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: **﴿وَوُوْچ [سورة الصف: الآية: 04]، أَنَّهُ:**
 "ملتصق بعضه إلى بعض، وقال ابن عباس: كَأَھم بنیان مرصوص: مثبت لا يزول، ملتصق بعضه إلى بعض"¹.

وبهذا تتضح صورة مساندة المؤمن لأخيه المؤمن والوقوف بجانبه بمشهد الحائط المثبت البنيان والملصق بعضه ببعض، وهو ما يؤكد متانته وقوّته وصلابته. ومّا يزيده التأكيد على هذا المعنى الزيادة التي وردت في رواية البخاري وهي قول الراوي بعد سوق الحديث: وشبّك بين أصابعه. هذا التشبيه على التشبيه "زيادة في الإيضاح والبيان وتشبيهاً للمعقول بالمحسوس، وللمعنويات بالمحسوسات، قال ابن حجر: وهو بيان وجه الشبه، أي يشد بعضه بعضاً مثل هذا الشد، فالغرض من تشبيك أصابعه التمثيل وتصوير المعنى في النفس بصورة الحس"².

هذا من حيث المضمون الدلالي، أمّا إذا رجعنا إلى البنية التي تمّ وفقها صوغ وبناء التشبيه فإنّه يمكننا أن نقول إنّ النقاد العرب قد حدّدوا للتشبيه بنيتين شكليتين يمكن أن يأتي على صورتيهما التشبيه:

الشكل الأول: البنية التفاعلية:

ويذهب أتباع هذا الشكل إلى أنّ اشتغال التشبيه يكون بتفاعل طرفيه "المشبه" و"المشبه به"، فينتج عنهما معان ودلالات هي بمثابة المقاصد التي يضمّرها، وهو ما وضّحناه في التشبيه الوارد في الحديث النبوي الشريف، أي أنّ التفاعل الحاصل بين:

¹- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد السلامة، ج8، ط2، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية 1999، ص108.

² حمزة محمد قاسم، منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، ج 2، ص 42.

- صورة المؤمن الذي يؤازر أخاه ويساعده، وصورة الحائط المثبت المشدود هو الذي يصنع الإحباطات والمعاني المقصودة، "فالغرض بالتشبيه وفائدته الكشف عن المعنى المقصود"¹.

الشكل الثاني: البنية الاستبدالية:

عدّ بعض النقاد والبلاغيين التشبيه استبدالاً وتعويضاً للمعنى الضمني من المصرح به، يقول ابن قيم الجوزية: "فقد اختلفت عبارات أهل هذا الشأن في حدّه، فقال قوم حدّه أن يثبت للمشبه حكماً من أحكام المشبه به، وقال قوم حدّه الدلالة على اشتراك شيئين في معنى من المعاني، وأن أحدهما يسدّ مسدّ الآخر وينوب منابه"².

أ) التشبيه التفاعلي:

إنّ استخدام المتكلم للتشبيه لا يكون اعتباطاً، بل يعتمد لذلك رغبة منه بعقد علاقة بين الطرفين: المشبه والمشبه به بغية إظهار "التفاعل بين طرفي الصورة التشبيهية ومدى ملاءمتها لحال الخطاب"³، فينتج عن ذلك الحجّة والدليل مما يدعو المتلقي إلى الاقتناع، وحمله على الإذعان لفحوى الرسالة المتوخاة، وبالتالي تترسخ المعاني في الذهن.

أسهم التشبيه في الحديث النبوي الشريف في بعث العملية الحجاجية، وقدّم "على أنّه دليل أقوى لصالح النتيجة المتوخاة، وهذه الخاصية المميزة للقول التشبيهي"⁴، فورد في الحديث النبوي الذي بين أيدينا على شكل حجج صنعت نتيجة مقصودة، أو هي النتيجة التي يهدف النبي ﷺ إلى إيصالها للمتلقي، فنجد:

الحجة الأولى: حاجة المؤمن لأخيه المؤمن.

الحجة الثانية: صورة الحائط المتين المثبت الذي لا يتزعزع.

الحجة الثالثة: مؤمن مؤازر لأخيه كحائط متين.

¹ - ابن قيم الجوزية، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، تصحيح: بدر الدين النعساني، ط1، مطبعة السعادة، مصر، 1327 هـ، ص54.

² - المصدر نفسه، ص55.

³ - مجيد عبد الحميد ناجي، الأسس الفنية في البلاغة العربية (د.ط)، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، 1984، ص195.

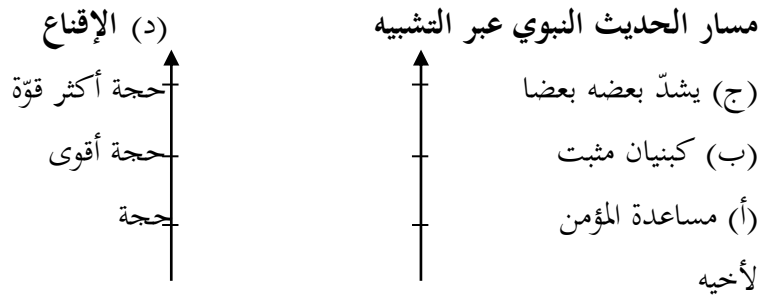
⁴ - سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ط1، عالم الكتب الحديث، جدار للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، 2008، ص264.

فتكون:

النتيجة: مجتمع متماسك بمساعدة بعضنا البعض

وبهذا تترسخ النتيجة بصورة أبلغ وأكثر تأثيرا دون الإفصاح المباشر عنها في الصورة التشبيهية، وفي هذا الموضع، أي الحديث عن الحجج وتموضعها، يقودنا الحديث عن السلم الحجاجي، وهو تصوّر ينظّم الحجج ويوجّهها بالاعتماد على مبدأ التدرّج وبلاستناد إلى قوة الحجة أو ضعفها، وقد عرّف ديكرو (Ducrot) السلم الحجاجي بأنّه: "كل علاقة ترتيبية لحجج معينة"¹ لأنّ "الأقوال المثبتة للمدلول الواحد لا تتعدّد فحسب، بل لأنّها تتفاوت قوّتها التّدليلية أو قل صاحبها"².

يتخذ السلم الحجاجي للتشبيه في الحديث النبوي الشريف الشكل التالي:



الشكل "١": السلم الحجاجي للتشبيه

- الحجاج التصاعدي:

ويسمى أيضا الحجاج من الأضعف إلى الأقوى، ونقصد به أنّ الرسول ﷺ قد رتب حججه تصاعديا من الحجة الأضعف إلى الحجة الأقوى عبر التشبيه، فيتدرج في بناء الاقتناع لدى المتلقي شيئا فشيئا، لذلك فهو حجاج ناجح؛ إذ يسعى إلى ترسيخ الدّعوة في نفسية المتلقّي وبشكل أعمق حتى يصعب "اقتلاعها" منه، كونها قد أصبحت ثابتة في أعماقه، وهو ما يمكننا توضيحه عبر السلم الحجاجي الشكل "1".

¹- Osvald Ducrot, Les échelles argumentatives, Edition de Minuit, 1980, P18.

²- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1998، ص276.

يكشف لنا السّلم الحجاجي خاصيتين هما:

1- إنّ استخدام التشبيه يمثل دليلا أقوى للوصول إلى نتيجة مقصودة وهي الاقتناع بضرورة الوقوف ومساندة المؤمن لأخيه المؤمن.

2- إنّ إلحاق المشبه بالمشبه به وإحداث التفاعل بينهما، هو الذي أدى إلى تحقيق نتيجة أقوى حيث يفتح ذهن المتلقي ويجعله يتخيل شكل الحائط المثبت القوي، ويقارنه بصورة تآزر المسلمين وتعاطفهم فيما بينهم، لتأتي صورة الحائط الهش غير المثبت، فتولد اقتناع المتلقي بضرورة تبني الحجة التي وصى بها النبي ﷺ.

وتكمن أهمية السّلم الحجاجي للتشبيه في أنّه يركّز على "الطابع المتدرّج والموجّه للأقوال ويبيّن أنّ الحاجة ليست مطلقة؛ إذ لا تتحدّد بالمحتوى الخبيري للقول ومدى مطابقته لحالة الأشياء في الكون، وإنما هي رهينة اختيار هذه الحجة أو تلك بالنسبة إلى نتيجة محدّدة لذلك"¹، فالمتلقي للحديث النبوي الشريف يقف عند صورتين تلتقيان في صعيد واحد:

- صورة المؤمن المساعد لأخيه المؤمن: ووصفه النبيّ الكريم ﷺ بالحائط المثبت القوي الذي لا يتزعزع.

لتأتي بمقابلها:

- صورة الشخص المتخلّي عن أخيه الإنسان: ونمثّل له بالمقابل بحائط هش، ضعيف، قابل للسقوط.

ومن هنا يتمّ استبدال المعنى المصرح به: "البيان المشدود"، بمعنى آخر ضمنى تستدعيه

الصورة التشبيهية، وهو عدم "متانة البيان"، وهذا ما يقودنا للحديث عن التشبيه باعتباره استبدالاً.

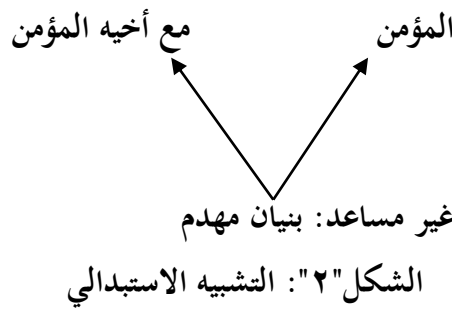
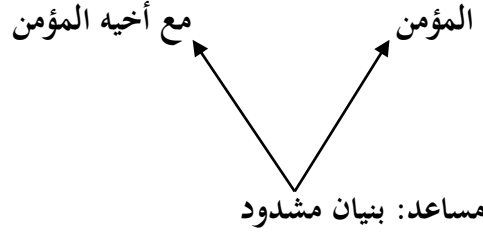
(ب) التشبيه الاستبدالي:

يرى عبد الله صولة أنّ البلاغيين القدماء ربطوا كثيراً بين الاستبدال والاستدلال، فنجد

ترابطاً منطقياً في عرض الصورة التشبيهية وفق ما هو مصرّح به وما هو مضمّر، وبهذا يمكننا الحديث

¹ - عبد الله صولة، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص 370.

على الحجاج الاستدلالي الذي يعتمد على البرهنة والعقل، ووفقا لهذه المقارنة يمكننا الحصول على ما يتم توضيحه في الشكل "2":



ثالثا: المضمّن عبر القول التشبيهي:

إنّ المرور من الكلام المؤكد (المصرّح به) عبر التشبيه إلى مفهوم المضمّن (غير المصرّح به) داخل القول التشبيهي ليس آليا ومباشرا، وإنّما يحمل شحنات تنبيهية للمتلقّي بمثابة العمل الكلامي غير المباشر تجعله يتحرّك في مداره، فتحمل صورة التشبيه هنا نمطا من الفهم مفاده:

— ساعد أخاك المؤمن.

فعلى الرغم من أنّ الحديث النبوي الشريف دعوة للنّاس إلى ضرورة مساندة ومؤازرة إخواننا المؤمنين والوقوف بجانبهم، إلّا أنّنا لا نجد فيه أمرا صريحا بعبارة: "ساعد أو قف ... " يأمر الرسول **صلّى الله عليه وسلّم** بموجبا المؤمنين بضرورة مساعدة بعضهم البعض، وإنّما هي دعوة ضمنية عبر التشبيه، وذلك لنجاعة الحاجة به وضمانا "لأوفر حظوظ النجاح لها —الدعوة— باعتبار أنّ إقامة الدليل على وجوب الشيء دون إيجابه يكون ألزم بالحجة من صريح الدعوة إلى وجوبه بواسطة الأمر، فالأمر لا طاقة حجاجية له عكس ما قد يتبادر إلى الذهن"¹ عبر التشبيه، لهذا يلجّ الدارسون على أنّ للصورة

¹ - عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ص296.

البيانية تأثيرا في المتلقي من خلال ما تضره من معان ودلالات تعوض فكرة مجردة أو مفهوما لغاية التأثير في المتلقي وإقناعه وتسليمه بتلك الفكرة أو هذا المفهوم.

في هذا الحديث النبوي مسلك دقيق في رسم مشاهد الدلالات المرادة والمقاصد التي يهدف من ورائها النبي ﷺ، حيث يفتح في ذهن المتلقي بابا واسعا للتخييل وتشخيص الملامح بالاعتماد على وضوح مشهده، فالمتلقي يتخيل: البنيان المرصوص والمشدود الحكم الذي لا عيب فيه، ويربطها بصورة المساعدة والتضامن بين المؤمنين، كما يتخيل البنيان الضعيف والهش الذي يلاحق صورة المؤمن الذي لا يعطف على أخيه المؤمن.

رابعا: منطلقات الحجاج في الحديث النبوي الشريف:

تؤخذ المنطلقات الحجاجية على أنها مسلمات يقبل بها المتلقي، وتكون من الأسس التي تدعم الإقناع لدى المخاطبين، ومن أهم المنطلقات التي انبنى عليها التشبيه في الحديث النبوي نجد:

1- **توظيف القيم:**

تضمن التشبيه في الحديث النبوي الشريف مجموعة من القيم أسهمت في إقناع المتلقي، إذ عملت على تحريكه انطلاقا من المعاني السامية التي تدعو إليها، فللقيمة - كما يرى طه عبد الرحمن - «معنى خفي يجده الإنسان في قلبه [...] وهي معان فطرية هادية وسامية»¹. تلك المعاني تشكل خزاننا حجاجيا هاما؛ فهي "تحمل النفوس على التأثير لمقتضى القول نظرا لما تحوزه من قدرة على خدمة الجوانب العاطفية والعقلية من العملية الحجاجية، لأنها تهتم بالأساس إبراز المشترك بين الناس والدفع به إلى واجهة الأشياء المرغوبة أو دعم حصول أفعال مطلوبة بالاستناد إلى حجيتها في متعارف الأوساط"²، فالفرد ينجذب لكل القيم الموجبة التي تدعو للخير، لذلك نرى أنّ الرسول ﷺ يستعين بها حتى يحقق غايته وهي الإقناع.

¹ - طه عبد الرحمن، سؤال العمل، بحث في الأصول العملية في الفكر والعلم، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ص240.

² - أحمد قادم، مقاربة حجاجية: بانث سعاد لكعب بن زهير، ضمن سلسلة التحليل الحجاجي للخطاب، بحوث محكمة ص555.

ففي الحديث النبوي الشريف تم توظيف مجموعة من القيم السامية التي اشتغلت كموجّهات حجاجية، تحاول الدفع بالمتلقي نحو اختيارات معيّنة، وجعله يقبل بصحة الحكم، ولعل أبرز هذه القيم التي يكثر استعمالها في السنة النبوية، نجد الصدق والأمن والإخلاص والعدالة والتسامح. تتعالق هذه القيم بتحديد علاقة الخطاب بالمستمع، بحيث يقبل هذا الأخير الشخص الذي يبعث فيه كل القيم الإيجابية، وهو ما ساهم التشبيه في رسمه وتحديد أفقه، فجميع هذه الصفات تعبّر عن تصوّر ذهني مرتبط ارتباطا وثيقا بالنظم الاجتماعية والثقافية المتعارف بها. انطوى التشبيه (ضمنيا) على مجموعة من القيم الإسلامية المحمودة ذات البعد الأخلاقي النبيل أسهمت في إقناع المتلقي، ومن بينها نذكر:

- قيمة الرحمة والرأفة:

وتمثّل البؤرة التي يتركّز حولها الحديث النبوي، وهو تشجيع للناس على التعاطف فيما بينهم ومساندة بعضهم بعضا.

- قيمة التضامن والتلاحم:

وهي ما يجعل المجتمع متماسكا؛ لا تزعزعه نوائب الدهر، ولا يمكن أن تهدم بنيانه المتين، وبالتالي تزيد في تماسكه بها.

- قيمة الشرف:

استحضرت هذه القيمة في الحديث النبوي ضمينا من خلال دعوة الأفراد للتخلي بروح المساعدة والرأفة بالآخرين مما يكسبهم شرفا وعلوّا، كونها عماد المجتمع بل وروحه أيضا لذلك لا يقدر الفرد على تجاوزها ولا إلغائها.

2- الوقائع:

وتمثّل الأمور المشتركة بين عدّة أشخاص أو بين جميع الناس، وهي مقدّمات حجاجية ليست عرضة للدحض أو الشك، تشكّل نقطة انطلاق ممكنة للحجاج، وقد قسّم شايم بيرلمان (Chaim



(Perleman)، وتيتكا (Tyteca) الوقائع إلى وقائع مشاهدة معانية من ناحية، ووقائع مفترضة من ناحية أخرى، وهذان النوعان من الوقائع قد يفقدان لسبب أو لآخر طابعهما كوقائع وحقائق،¹ فالمتلقي يسلّم بالوقائع لكونه يفرض نفسه على الجميع، كما أنّ الحقائق إما أن تكون نظريات علمية أو حقائق دينية تمثل سلطة معيّنة على الفرد.

لقد بنى التشبيه حججته على هذه الوقائع كونها تحظى بتسليم الأفراد، "فالبنيان المرصوص" صورة حجاجة واقعية للثبات وعدم التزعزع والضعف، والتسليم بهذا من قبل المتلقي يدعم البناء الحجاجي للحديث النبوي الشريف؛ لأنه يؤكّد ما هو موجود واقعا ومثبتا لدى الأعيان.

3- الافتراضات:

تعد درجة التسليم بالافتراضات ليست قوية كونها "تحدّد بالقياس العادي أو المحتمل، لكن هذا العادي أو المحتمل يتغيران بتغير الحالات"²، أي أنّ الافتراضات هي احتمالات توفّر للمتكلم مبررات كافية لعدم غعتقاد المعقول، لأنها ترتبط عادة بما يحدث، لذلك تركّز على الافتراض المسبق، وهو ما يعثه التشبيه في الحديث النبوي الشريف:

- فصورة المؤمن المتضامن مع أخيه المؤمن المشبهة بصورة الحائط المتين المثبت، تجعل المتلقي يفكر مسبقا في الأعمال التي سيقوم بها للوصول إلى الصورة التي رسمها التشبيه، من خلال تحصيل الوسائل الموصلة إلى الغايات وتحقيقها، وبالتالي تقودنا إلى انجاز الفعل وهو ما يسعى إليه الحديث النبوي.

المطلب الثاني: حجاجة المرسل الرسول صلى الله عليه وسلم:

ذكر أرسطو أنّ هناك ثلاثة أنواع من التصديقات التي قد يلجأ إليها المتكلم من أجل الإقناع؛ فمنها ما يكون بكيفية المتكلم وسمته، ومنها ما يكون تهيئة للسامع واستدراجه نحو المراد، ومنها ما يكون بالكلام نفسه قبل الثبوت.³

¹ - Chaim Perleman, Lucie Olbrechts Tyteca, Traite de l'argumentation, la nouvelle rhétorique, Editions de l'Université de Bruxelles, 5^{eme} edition, 2000, p89, 90.

² - عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، ص25.

³ - أرسطو، الخطابة، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، لبنان، 1979، ص09.



وإذا استحضرنا هذا في الحديث النبوي، فإننا نرى أنّ المتكلم، أيّ صاحب الحديث النبوي الشريف، هو الرسول ﷺ سيد خلق الله أجمعين، وإمام المتخلقين. فالجانب الأخلاقي فيه لا تخفى أهميته، بل يعدّ النموذج المثالي الذي يقتدي به كلّ النَّاس، وبشهادة من الله عزّ وجلّ: **چگ گ** **س ن چ (سورة القلم: الآية: 04)**، ومن أخلاقه: الأمانة والرحمة والشفقة، وغيرها من الصفات الحميدة التي تستدرج المتلقي نحو قبوله والاقتران بما يقوله.

واعتمد في حديثه خصوصيات جوهرية لإثبات حججه وإقناع المتلقي والتأثير فيه بجعله ينخرط في الدعوة المصاغة عن طريق التشبيه، وهي ضرورة التكافل والتآزر بين المسلمين، ومنها:
أوّلا: خاصية البناء:

ليس هناك حجاج جاهز أو معطى منذ البداية، بل هو عملية يتم بناؤها تدريجيا، وتتطلب تكييفاً مستديماً لعناصرها إلى نهاية إتمام الحجاج، وهو الطريق الأنسب إلى الإقناع¹.
يتشكّل الحديث النبوي الشريف من مزيج من التوجيه العقلي وإثارة العاطفة من خلال بسط الاختيارات القيمة والأخلاقية بالتعلق مع الاختيارات النفعية حتى يجعل المتلقي يقتنع ويتمّ البناء بحجج حتى يصل إلى إقناع المتلقي:

- المسلم لأخيه المسلم.

- كالبنیان المرصوص.

- يشد بعضه بعضا.

إنّ هذه الآلية البنائية هي التي تحسم الحكم، وتدفع المتلقي إلى الاقتناع.

ثانيا: خاصية الاعتقاد:

إن استهداف اعتقادات الأفراد يمثل إحدى الجوانب الأساسية في العملية التخاطبية، ويشكّل رهانا صعبا في كل حجاج، بالرغم من كون الاعتقادات لا تمثل عناصر مادية ملموسة وتخلو من كل استدلال ذي بعد علمي برهاني، لذلك ارتبط أمر الاعتقاد ببعض القيم الإنسانية (نبل، شرف،

¹ - عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغيّر، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق، المغرب 2006، ص 129.

أمانة، إيثار، توضحية)، والتي يدور عليها الحجاج ، ويراهن عليها المتكلم كي يدعن السامع لما يطرحه من آراء ومواقف¹ وهو ما توجه إليه الحديث النبوي الشريف.

فالاعتقادات بصفة عامة هي ملتقى الأخلاق المقبولة في مجتمع ما، تقوم بدور المسلمات أو المبرهنات كما في الرياضيات، لا تقبل النقاش والجدال في كثير من الأحيان، ولا تقوم على قواعد مضبوطة، وإنما تقوم على أنساق فكرية وعلل تتمزج فيها الأقوال بالأفعال، والمبادئ بالمسلمات والأقوال السياقية الظرفية، فتتفاعل لتؤسس أحكام القيمة، وتصبح قيما مشتركة نظرا لمصالحها النفعية².

إنّ هذه الاعتقادات لها معنى لدى كل متلق، وهو نتاج وحصيلة لعمليات تواصلية إقناعية يلعب فيها الحجاج دورا مركزيا عن طريق مؤثرات تمس الدواخل الإنسانية، فيحوّل الحجاج فيها ما هو خيالي إلى شيء واقعي³.

فالرسول ﷺ يربط حديثه بالجانب الأخلاقي، وهو ما يزيد المتلقي تأثيرا وانتهاضا للحكم بالتبني والامتثال.

ثالثا: خاصية الانتهاض إلى العمل:

من أهمّ التّحولات التي عرفتھا الدّراسات المعاصرة في مجال المنهجية، "الوقوف على عجز المنطق الصوري في شكله التقليدي الأرسطي، أو في شكله المعاصر أي المنطق الرياضي، عن أن يكون أداة مفيدة في وصف وتفسير الظاهرة التّدلّيلية كما تتجلّى فعلا في العلوم الإنسانية والاجتماعية بشكل عام، وفي التّفاعل الحجاجي، العلمي أو العادي بشكل خاصّ، وعلى هذا الأساس قامت دراسات معرفية ومنهجية حديثة، تجاوزت منطق البرهان الصّناعي، وسعت إلى تأصيل خطاب تداولي طبيعي، استثمر ما زخر به التّراث الإسلامي القديم من أساليب البحث في آليات الخطاب، وطرق التّدليل"⁴.

¹ - المرجع نفسه، ص133.

² - المرجع نفسه، ص134.

³ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

⁴ - همام محمد، المنهج والاستدلال في الفكر الاسلامي، ط1، دار الهادي، بيروت، 2003، ص137.

إن تأثير القول الحجاجي غالبا ما يدفع إلى رد فعل معين، قد يكون عملا، أو كفا عن عمل، أو عدولا عنه، أو تحويلا لمساره، وهذا العمل هو الذي يؤكد باللمس حصول اقتناع معين لدى المتلقي¹. وهو ما يطلق عليه طه عبد الرحمن عبارة انتهاز المتخاطبين إما بالأقوال أو الأفعال، وهذا ما يسعى إليه الحديث النبوي الشريف من خلال توظيف التشبيه، وذلك من أجل "بناء استدلال قوي، حتى يمكن أن يؤدي ذلك إلى إقناع المستمع بأطروحة المتكلم وتزكيته، إما باعتقاد أو الفعل أو رد الفعل، أي تحقيق الفعل الحجاجي إلى واقع ملموس فعلا أو تركا"².

المطلب الثالث: حجاجية المتلقي:

لقد وُفّر التشبيه حججا قوية للمتلقي، إذ أسهم في عملية الإقناع من خلال رسم صورة واقعية للمقاصد المرجوة من الحديث النبوي الشريف، وهي الالتزام بما أمرنا به نبيّنا الكريم لأننا سنجازي يوم الحساب، وبهذا يكون الدين حجة على المتلقي لما له من سلطة وإذعان للآخر وبلوغ للمقاصد، فهو كما يرى طه عبد الرحمن "الحجة العليا"³.

وظّف طه عبد الرحمن مصطلح الإقناعية في شروط التبادل اللغوي، وعرّفه بقوله: «عندما يطالب المحاور غيره بمشاركته اعتقاداته، فإنّ مطالبته لا تكتسي صيغة الإكراه، ولا تدرج على منهج القمع، وإنما تتبع في تحصيل غرضها سبلا استدلالية متنوعة، تجرّ الغير جرا إلى الإقناع برأي المحاور»⁴. بمعنى أنّ الإقناع يحتاج إلى الحجة والبرهان لتحصل القناعة لدى المتلقي، ولا ينجرّ أسلوبه متقصّدا الإكراه والتضليل، وبذلك يصبح الإقناع مهارة من مهارات التأثير في الآخرين وجعلهم يتقبلون الأفكار المعروضة عليهم بضرب من اللين الاستعطاقي والمرونة العقلانية، دون أيّ إشعار بالاستعلاء والهيمنة، أو الترويض من أجل الاستدراج والاستغلال والمخادعة، وهو ما يتكئ عليه التشبيه في الحديث النبوي الشريف.

1- عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغيّر، ص134.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص226.

4- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2007، ص 38.

إنّ الحديث النبوي الشريف هنا يرتبط بإنجاز الفعل، وامتزاجه المستمر بتطلعات المتلقي وما ينجم من تغيير لوضع سابق، "فهو ليس ارتجالا عشوائيا أو مجرد وصف تلقائي للكلمات والأفكار إنّهُ مطالب بالنجاعة، فهو وسيلة عمل اجتماعي¹. إنّهُ خطاب يحمل كل قيم الخير والصلاح، وما هو نافع ومفيد للأفراد، مما يجعله يفتح آفاق انتظار، ويتوقع منه عددا من النتائج، معالجا في ذلك الخلافات والاختلافات، فكلما ارتبطت الرسالة بعملية إقناعية كان لابد من اختيار آليات خطابية تستهدف تقوية القناعة لدى المتلقي، بل يتجلى بإنجاز الفعل "تكون فيها مساعدة المؤمن لأخيه المؤمن واقعا منجزا".

استعمل النبي ﷺ استراتيجية لإقناع المتلقين تعتمد على التأثير القوي قصد تحقيق نتائج أكثر، فكان التشبيه حجة لا يشوبها إرغام أو قوّة، وإنّما تخلق هذه الصورة عالما يقودنا إلى الاقتناع، لأنّها تحقق لنا منفعة، فصورة الناس كحائط مثبّت، غير متزعزع، قوي، لا يتشتت، تضع أمرا نفسيا واجتماعيا في الحسبان، كوننا نتوق لهذه الصورة المثالية ونسعى دائما لبنيتها.

وفي الختام يمكننا أن نحمل القول في ما قدّمنا من تحليلات وما توصلنا إليه من نتائج، فقد تناولنا دراسة التشبيه في الحديث النبوي الشريف بناء على النظرية الحجاجية التي ترمي إلى رصد جماليات التشبيه وحجاجيته، وتوصلنا إلى نتائج أهمها:

- التشبيه آلية من آليات التواصل القائمة على إثبات وتبرير الحجج والدعاوى، بهدف إذعان المتلقي وجعله يغيّر أو يثبت دعواه، لذلك يعدّ وسيلة للإقناع، لا مجرد زخرف جمالي أو حلة تزيينية للخطاب.

- الحجاج ممارسة فكرية نشيطة، يشتغل في ثناياها التشبيه باعتباره من الوسائل والأساليب التي تقود المتلقي إلى قبول الدعوى والإقناع بها نظرا لسيورته التفاعلية بين ما يضمّره المشبه والمشبه به.

- تجاوز التشبيه - في ظل النظرية التداولية - العلاقة السطحية: التفاعل بين المشبه والمشبه به إلى تجسيد المواقف والأفعال من خلال ما دعانا إليه النبي الكريم، فرسم مشهدا يؤثر في نفسية المتلقي

¹ - عبد اللطيف عادل، الحجاج في الخطاب السياسي ضمن التحليل الحجاجي للخطاب، ص 286.

الذي يحاوره ويحاججه ويدعوه إلى تبني المواقف والأفكار والتسليم بالغاية الكبرى المضمرة خلف الخطاب.

- استخدم الحديث النبوي الشريف التشبيه آلية حجاجة لتحقيق أهدافه من خلال لفت انتباه المتلقي، ودعوته لإنجاز الأفعال، وهي آلية لا تفصل بين شكل الخطاب (أي التشبيه) ومضمونه (أي الجانب التداولي)، بل جعل من التشبيه مبدأ للتواصل وضمان وصول المقاصد والأهداف للمتخاطبين.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- ابن قيم الجوزية، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، تصحيح: بدر الدين النعساني، ط1، مطبعة السعادة، مصر، 1327 هـ.
- 2- ابن كثير أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد السلامة، ج8، ط2، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، 1999.
- 3- ابن منظور جمال الدين، لسان العرب، دار صادر، لبنان، 2003.
- 4- أحمد قادم، مقارنة حجاجة: بانت سعاد لكعب بن زهير، ضمن سلسلة التحليل الحجاجي للخطاب، بحوث محكمة.
- 5- أرسطو، الخطابة، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، لبنان، 1979.
- 6- جلال الدين السيوطي، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، صححه: فؤاد علي منصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1998.
- 7- حمد محمد بن صراي، يوسف محمد الشامسي، المعجم الجامع، ط1، مركز زايد للتراث والتاريخ، 2000.
- 8- حمزة محمد قاسم، منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، مراجعة: عبد القادر الأرنؤوط مكتبة دار البيان، دمشق، 1990م.



- 9- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيتة وأساليبه، ط1، عالم الكتب الحديث، جدار للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، 2008.
- 10- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1998.
- 11- طه عبد الرحمن، سؤال العمل: بحث في الأصول العملية في الفكر والعلم، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب.
- 12- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ط3، 2007.
- 13- عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغيّر، مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج أفريقيا الشرق، المغرب، 2006.
- 14- عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد الفاضلي، ط2، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان 1999.
- 15- عبد اللطيف عادل، الحجاج في الخطاب السياسي ضمن التحليل الحجاجي للخطاب.
- 16- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط2، دار الفارابي بيروت، لبنان، 2007.
- 17- مجيد عبد الحميد ناجي، الأسس الفنية في البلاغة العربية(دط)، المؤسسة الجامعية للدراسات بيروت، 1984.
- 18- محمد بن لشهب، الروابط الحجاجية في المقامة، مقامة النحو للزخشي نموذجاً، ضمن التحليل الحجاجي للخطاب، بحوث محكمة، ط1، كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، 2016.
- 19- محمد همام، المنهج والاستدلال في الفكر الإسلامي، ط1، دار الهادي، بيروت، 2003.
- 20- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، (د ط)، مكتب رحاب الجزائر.
- 21- Chaim Perleman, Lucie Olbrechts Tyteca, Traite de l'argumentation, la nouvelle rhétorique, Editions de l'Université de Bruxelles, 5^{eme} edition, 2000.
- 22- Oswald Ducrot, Les échelles argumentatives, Edition de Minuit, 1980.



